

أسباب النزول وموقف العلماء من غموم اللفظ وخصوص السبب

دكتور / محمد السيد بندارى
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه
والهداة الداعين بدعوته من بعده .

وبعد : فإن من أهم مباحث علوم القرآن مبحث أسباب النزول ، لذلك
نال من العناية حظاً وافراً ، حتى أفردته جماعة من العلماء بالبحث والتأليف
أولهم : على بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ .

ثم جاء من بعده أبو الحسن على بن أحمد النحوى المفسر المعروف
بالواحدى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فالف كتابه « أسباب النزول » .

ثم جاء الجعبرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فاقصر كتاب الواحدى وحذف
أسنايده فى كتابه « أسباب النزول » ، ولم يزد على ذلك .

ثم ألف شيخ الاسلام أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢
كتاباً فى أسباب النزول ، ذكر السيوطى أنه أطلع على مسودته ولم يتيسر له
أن يقف عليه كاملاً .

ثم ألف السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ كتابه « لباب النقول فى أسباب
النزول » ، وتحدث عنه فى الاتقان فقال : وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً
لم يؤلف مثله فى هذا النوع سميته : « لباب النقول فى أسباب النزول » .

واستمرت العناية بهذا المبحث الى يومنا هذا .

وهكذا نرى عناية العلماء بهذا المبحث الهام من مباحث علوم القرآن .
وسنبحث في هذه الصفحات النقاط الآتية :

- ١ - المقصود بأسباب النزول .
- ٢ - معنى أسباب النزول .
- ٣ - فوائد معرفة سبب النزول .
- ٤ - طريق معرفة سبب النزول .
- ٥ - كيفية التعبير عن سبب النزول .
- ٦ - بيان الحكم اذا تعددت الروايات في سبب النزول .
- ٧ - توحيد السبب وتعدد المنازل .
- ٨ - موقف العلماء من عموم اللفظ وخصوص السبب وبيان الراى الراجع في المسألة .

أولا : المقصود بأسباب النزول :

للقرآن الكريم سبب عام أنزله الله تعالى من أجله ويتلخص في :

- ١ - أن القرآن هداية للبشر من الضلالة الى الهداية . كما قال تعالى :
« البر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد »
(ابراهيم آية ١)
- ٢ - أن القرآن هداية للمتقين كما قال سبحانه : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »
(البقرة آية ٢)
- ٣ - أن القرآن انذار للجاحد وتبشير للمؤمن . كما قال عز من قائل :
« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكنثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا »

وأكثر القرآن نزل لتحقيق هذه الأمور والتي يطلق عليها العلماء
« السبب العام لنزول القرآن الكريم » .

ولكن بعض الآيات نزل على أسباب خاصة اثر حادثه معينة
أو سؤال وجه للرسول ﷺ . وهذا هو المقصود عند العلماء من « أسباب
النزول » . وعلى ذلك فليس المراد بأسباب النزول ، السبب العام
الذى أوضحناه ، بل المراد الأسباب الخاصة كحادثة أو سؤال وقع في
 زمن النبي ﷺ .

ثانيا : معنى سبب النزول :

يعرف العلماء سبب النزول بأنه : ما نزلت الآية أو الآيات متحدة عنه
أو مبينة لحكمة أيام وقوعه .

والمعنى : أن حادثة ما وقعت في زمن النبي ﷺ أو توجه اليه أحد
الناس مسلماً كان أو غير مسلم بسؤال فينزل من القرآن ما يبين ما تتطلبه
الحادثة من حلول ، أو باجابة السؤال الموجه الى النبي ﷺ .

ومعنى قولهم في التعريف « أيام وقوعه » أن الحادثة التي تعتبر في
اصطلاح العلماء سببا للنزول هي التي ينزل القرآن بعدها مباشرة أو بعد
فترة لحكمة اقتضت التأخير .

ومن المعلوم أنه لا يتأتى ذلك الا بأن تكون الواقعة التي حدثت حاصلة
في زمن النبي ﷺ .

وعلى ذلك فالحوادث القديمة التي جاء الحديث عنها في القرآن بقصد
العظة والاعتبار كما في قصص الانبياء السابقين وأممهم لا تعتبر سببا لنزول
تلك القصص .

وكذلك الأمور المستقبلية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم لا تعد سببا
للنزول كالحديث عن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

قال السيوطي : والذي يتحرر في سبب النزول : أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدى في تفسيره في سورة الفيل من سببها قصة قدوم الحبشة . فان ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الاختيار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك . وكذلك ذكره « أى الواحدى » « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (١) سبب اتخاذه خليلاً . فليس من أسباب النزول كما لا يخفى ٥١هـ (٢)

ثالثاً : فوائد معرفة سبب النزول :

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة ذكرها العلماء منها :

١ - المساعدة على فهم الآية وابعاد الاشكال والغموض عنها .

يقول الواحدى مبيننا ضرورة معرفة أسباب النزول :

« انها أول ما يجب الوقوف عليها . وأولى ما تصرف العناية اليها .

لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان

نزولها » أ هـ (٣) .

ويقول ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معانى

القرآن » أ هـ (٤) .

ويقول ابن تيمية : « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان

العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » أ هـ (٥) .

(١) سورة النساء آية ١٢٥

(٢) الاتقان للسيوطى ج ١ ص ٣١ (م صبيح)

(٣) أسباب النزول للواحدى ص ٣ - نشر مكتبة الجمهورية (م هندية)

(٤) الاتقان ج ١ ص ٢٨

(٥) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٣٥٩ (طبعة السعودية) على نفقة

الملك فهد .

أمثلة للتوضيح :

وكما يقول العلماء : « بالمثل يتضح المقال » فاننا نذكر من الأمثلة ما يوضح ذلك :

أخرج الشيخان أن مروان بن الحكم أشكل عليه فهم قوله تعالى :

لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا
فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم » •
(آل عمران آية ١٨٨)

فقال لبوابه : اذهب يارافع الى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب ، لنعذبن أجمعون •

فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية • انما نزلت في أهل الكتاب •
ثم تلا هذه الآية : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون »
وهى الآية السابقة على الآية التى أشكل فهمها على مروان •

قال ابن عباس : سألهم رسول الله ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه
غيره • فخرجوا وقد أروه أن أخبروه عما سألهم عنه واستحمدوا بذلك اليه
وفرخوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه •

ومنشأ الاشكال عند مروان هو الجهل بسبب النزول حيث فهم أن الآية
وعيد بالعذاب لمن فرح بما أتى من خير وأحب أن يحمد على ما لم يفعل من
الخير • فى حين أن سببها يبين أنها وعيد لمن فرح بما أتى من شر واثم وأحب
أن يحمد على ما لم يفعل من الخير (١) •

(١) راجع البيان فى علوم القرآن - الدكتور عبد الوهاب غزلان
(الطبعة الأولى)

ومثال آخر : قوله تعالى : « واللائئى يؤسن من الحيض من نسائكم
ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » .
(الطلاق آية ٤)

فقد أشكل على البعض فهم معنى الشرط « ان ارتبتم » حتى قال أهل
الظاهر : ان اليائسة لعدة عليها ان لم ترتب .

والسبب فى ذلك عدم معرفة سبب نزول الآية . وقد زال ذلك عند
الوقوف عليه . فقد أخرج الحاكم عن أبى بن كعب أنه لما نزلت الآية التى
فى سورة البقرة فى عدة النساء قالوا : بقيت عدة لم تذكر وهى عدة الصغار
والكبار فنزلت « واللائى يؤسن » الخ الآية .

فظهر أن ارتبتم فى حكمهن فعدتهن ثلاثة أشهر ولكن الذين لم يقفوا
على سبب النزول فهموا أن المعنى : ان ارتبتم فى حيضهن لذا أشكل عليهم
معناها .

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى بهذين المثالين .

٢ - ومن فوائد معرفة سبب النزول : « معرفة الحكمة الباعثة على
تشريع الحكم وذلك لأن معرفة السبب يجلى الحكمة من تشريع الحكم ويظهر
الغاية التى من أجلها شرع سبحانه هذا الحكم ، فيزداد المؤمن إيماناً على
إيمانه ، وتقوى رغبة غير المؤمن فى الإيمان ان كان صاحب عقل سليم يتصف
الحق ويرجو الخير ، حيث كشف له النقاب عن جلال التشريع الإلهى وسمو
مقاصده .

ولنضرب على ذلك مثلاً بآيات المواريث التى أنزلها الله تعالى بعد
حوادث من ظلم أهل المتوفى لأبنائه جرياً على عادة أهل الجاهلية الذين
لا يورثون البنات ولا الصغار من الذكور الذين لا يركبون الفرس ولا يقاتلون
العدو .

فعندما نرى سبب النزول ندرك الحكمة من الميراث كما شرعه الله ،
وأنه يعطى كل ذى حق حقه ، ويحافظ على حق الضعاف ، ويحميهم من
بطش الأقوياء .

وحين تعرف الآيات التى نزلت بسبب شرب الخمر حتى انتهت بآيتى
المائدة « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من
عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل
أنتم منتهون » (المائدة آيات ٩٠ ، ٩١)

فقد حرم الله الخمر تحريما قاطعا بعد أن شرب جماعة الخمر وضرب
بعضهم بعضا حتى ظهرت آثار الضرب فى وجوههم وأوقع بينهم الشيطان
العداوة والبغضاء بسبب شربهم الخمر .

فاذا عرفت هذا السبب وعرفت أن الله بعده حرم الخمر تحريما مطاقا
أدركت سمو التشريع الاسلامى وعظمة الخالق فى تربية خلقه .

وكثيرا ما يكون لمعرفة سبب النزول أثر عظيم فى ادراك أن الحكم الذى
نزل على هذا السبب أزال حرجا شديدا وقع لبعض المسلمين كما فى آيات
الظهار واللعان .

٣ - معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية اذا ورد مخصص
لها . وذلك لقيام الاجماع على أن حكم السبب باق قطعا . فيكون التخصيص
قاصرا على ما سواه ، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج
بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز اخراجه قطعا للاجماع المذكور .

وقد يمثل لهذا بقوله تعالى « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات
المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم
وايديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون
أن الله هو الحق المبين » (النور آيات ٢٣ ، ٢٥)

فقد أخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى : « ان الذين يرمون المحصنات ٠٠ » الآية نزلت في عائشة خاصة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى « ان الذين يرمون المحصنات ٠٠ » الآية هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ . ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة . وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة . ثم قرأ « والذين يرمون المحصنات » الى قوله « الا الذين الذين تابوا » (النور آيات ٤ ، ٥)

وعلى هذا : فان قبول توبة القاذف وان كان مخصصا لعموم « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات » ، لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة أو قذف سائر أزواج النبي ﷺ ، فان هذا لا توبة له . لان دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعى فلا يجوز اخراجها بالاجتهاد لانه ظنى ، وهذا هو ما عليه الجمهور (١) .

٤ - معرفة سبب النزول تعين على معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين . حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ويبرأ المريب مبالغة في الخصومة والتحامل كالذى وقع من مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة حين أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه « يزيد » وكتب الى مروان بالامر ليسعى في تحقيقه ، فجمع الناس وخطب ودعاهم الى بيعة « يزيد » فأبى عبد الرحمن ابن أبى بكر أن يبايع ، فأراد مروان بشر فدخل بيت أخته السيدة عائشة أم المؤمنين ، فقال مروان : ان هذا الذى أنزل الله فيه « والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى » فردت عليه عائشة « ما أنزل الله فينا الا عذرى » كما في رواية البخارى . وفي رواية الحاكم وغيره : فبلغ ذلك عائشة فقالت :

« كذب مروان والله ما هو به ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته » .

(١) راجع مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٨٠

فمعرفة السبب برأت ساحة عبد الرحمن بن أبى بكر والا لاتهم ظلما
وبرىء الظالم الذى نزلت فيه .

٥ - دفع توهم الحصر عن الآية التى يفيد ظاهرها ذلك نحو قوله
تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الى محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة
أو دماً مسفوحاً أو لحماً خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ،
(الأنعام آية ١٤٥)

فقد ذهب الشافعى الى أن الحصر فى هذه الآية غير مقصود ، ودل
على ذلك بسبب النزول ، فإنها نزلت بسبب تحريم الكفار لما أحل الله
وتحليلهم لما حرمه عناداً منهم ومحادة لله ورسوله فنزلت الآية بهذا الحصر
الصورى مشادة لهم لا قصدا الى حقيقة الحصر فكانه تعالى قال « لا حلال
الا ما حرمتوه ولا حرام الا ما أحللتهموه » نازلاً منزلة من يقول لك :

لا تاكل اليوم حلى ، فتقول : لا أكل اليوم الا الحلى والغرض
المضادة ، لا النفى والاثبات على الحقيقة .

قال امام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى الى
ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية (١) .

٦ - جذب انتباه السامع وتيسير الحفظ والفهم عليه حين يقف على
سبب النزول ، لأن ربط الاسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث والحوادث
بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل أولئك من دواعى تقرير الأشياء ، وانتقاشها
فى الذهن وسهولة استدكار مقارنتها فى الفكر ، وذلك هو قانون تداعى
الأفكار المقرر فى علم النفس (٢) .

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ١٠٥

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٧

رابعاً : الطريق الصحيح لمعرفة سبب النزول :

يعتمد العلماء في معرفة سبب النزول على الرواية الصحيحة عن الرسول ﷺ ، ويعتمدون على المروى عن الصحابة ، لأن هذا مما لا مجال للرأى فيه فيأخذ حكم المرفوع بشروط ذلك ، فلا يكون من الآخذين عن الاسرائيليات وأن تكون الصيغة المنقولة عن الصحابى جارية مجرى المسند ، بحيث تكون جازمة بأنها تبين سبب النزول ولا يلزم أن يعضد قول الصحابى أو يعزز برواية أخرى تقويه .

وقد كان السلف يتورعون أن يقولوا شيئاً من ذلك دون تثبت قال محمد ابن سيرين : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سدادا ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن . وهو يقصد بذلك الصحابة .

وأما ان ذكر سبب النزول تابعى فانه يكون مرسلًا ويقبل اذا صح المسند اليه وكان من أئمة التفسير ، الذين أخذوا عن الصحابة مثل مجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة . وبشرط أن يعضد خبر التابعى بمرسل آخر (١) .

وقد حذر العلماء من التساهل في الرواية . فقد روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ اتقوا الحديث الا ما علمتم فانه من كذب على متعمداً فليتبوا مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوا مقعده من النار .

خامساً : كيفية التعبير عن سبب النزول :

ينقسم التعبير عن سبب النزول الى قسمين :

١ - صريح ٢ - محتمل

فالصريح : اذا صرح الراوى بأن سبب نزول هذه الآية كذا ، أو يذكر فاء التعقيب على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال . وعلى ذلك : اذا قال الراوى سبب النزول كذا ، أو قال حدث كذا فنزلت آية كذا ، أو سئل

(١) الاتقان ج ١ ص ٣١ بتصرف . والمراد بالمرسل ما سقط من اسناده الصحابى وانتهى الى التابعى .

النبي ﷺ عن كذا فنزلت الآية ، كان ذلك كله نصا صريحا في بيان سبب النزول .

وأما المحتمل : فيكون في حالة عدم التصريح في صيغة سبب النزول .
كان يقول : نزلت هذه الآية في كذا ، كما في رواية نافع قال : قرأت ذات يوم « نساؤكم حرث لكم » فقال ابن عمر أتدرى فيما أنزلت هذه الآية قلت : لا : قال نزلت في اتيان النساء في أدبارهن ، أخرجه البخارى . فهذه الصيغة غير صريحة لاحتمال أن يكون المراد بيان حكم اتيان النساء في أدبارهن وأن ذلك جائز اذا كان في موضع الحرث أى القبل لكن من جهة الدبر ، ويحتمل أن يكون سببا للنزول ، لكن تجد سبب النزول صريحا في رواية البخارى وأهل السنن في هذه الآية ، فعن جابر قال : كانت اليهود تقول :

إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول . فنزلت « نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم » وهى مخالفة لرواية نافع عن ابن عمر . وعلى ذلك : ان جاءت احدى الصيغ صريحة والأخرى محتملة ومخالفة فالمعتمد ما نص على السبب كما سيأتى .

ومن الصيغ المحتملة : أحسب هذه الآية نزلت في كذا ، أو ما أحسب هذه الآية نزلت الا في كذا ، كما في رواية البخارى ومسلم عن عبد الله بن الزبير أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبي ﷺ الى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه ، فقال رسول الله ﷺ اسق يا زبير ثم أرسل الماء الى جارك ، فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر ثم أرسل الماء الى جارك . الخ الحديث فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية نزلت الا في ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »
(النساء آية ٦٥)

وقال ابن تيمية : قولهم : نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وان لم يكن السبب .

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا . هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجرى مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ؟ فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما اذا ذكر سببا نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلون مثل هذا المسند ، وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم اذا قال :

نزلت هذه الآية في كذا فانه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل - لما وقع (١) .

واذا كان الاختلاف دائرا بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصا ، كان يقول بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في كذا ، ويقول الآخر نزلت في كذا أو يذكر ما ذكره الأول ، وكان اللفظ يتناولهما ولا قرينة تصرف أحدهما الى سبب النزول فان الروایتين كليهما تحملان على بيان ما يتناوله اللفظ من المدلولات ولا وجه لحملهما على السبب (٢) .

سادساً : بيان الحكم اذا تعددت الروايات في سبب النزول :

قد تأتي روايات متعددة في سبب نزول آية معينة وتنحصر هذه المسألة في أربع صور على النحو التالي :

الأولى : أن تأتي روايتان في سبب النزول احدهما صحيحة والأخرى ليست صحيحة . والحكم في ذلك واضح وهو الأخذ بالصحيحة وترك غير الصحيحة ومثال ذلك : تعدد الرواية في سبب نزول قوله تعالى :

(١) أنظر مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٣٣٩ والاتقان ج ١ ص ٣١

(٢) مناهل العرفان ج ١ ص ١٠٩

« والضحى والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلى » فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فاتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك فأنزل الله « والضحى والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلى » وهى الرواية الصحيحة .

وأخرج الطبرانى وابن أبى شيبه عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله ﷺ ، أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال يا خولة : ما حدث فى بيت رسول الله ﷺ ، جبريل لا يأتينى فقلت فى نفسى : لو هيات البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة فأخرجت الجرو ، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان اذا نزل عليه أخذته الرعدة ، فأنزل الله « والضحى والليل .. الى قوله فترضى » .

وهذه الرواية ضعيفة لوجود من لا يعرف فى سندها كما ذكره الامام ابن حجر وقال : فالمعتمد ما فى الصحيح .

الثانية : أن تأتى روايتان صحيحتان ولكن تترجح احدهما على الاخرى باحد المرجحات كحضور القصة ، أو تكون أكثر صحة . والحكم فى ذلك الأخذ بالرواية الراجحة دون المرجوحة .

ومثال ذلك ما جاء فى سبب نزول قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (الاسراء آية ٨٥)

فقد أخرج البخارى عن ابن مسعود : قال : كنت أمشى مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم : لو سألتموه فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى اليه - حتى صعد الوحي ، ثم قال : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وعلى هذه الرواية يكون نزول الآية بالمدينة بسؤال اليهود .

وأخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود
اعطونا شيئاً نسال هذا الرجل فقالوا : اسألوه عن الروح فسألوه فانزل الله
ويسألونك عن الروح . . . الخ الآية .

وعلى هذه الرواية : يكون نزول هذه الآية بمكة بسؤال قريش والراجح
الرواية الأولى لأنها من رواية البخارى .

وهى مقدمة على رواية الترمذى ولأن ابن مسعود حضر القصة بنفسه
ولكن ابن عباس فى روايته هذه لم يكن ولد بعد .

الثالثة : ان تأتى روايتان صحيحتان ولا يوجد مرجح لاحدهما على
الأخرى ولكن يمكن أن نجمع بينهما بأن الآية نزلت عقبهما والحكم فى ذلك
كلاهما سبب لنزولها فالسبب متعدد والنازل واحد لتشابه السببين .

قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب . ومثال ذلك سبب نزول
قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم الى
قوله ان كان من الصادقين » وهى آيات الملاعنة (النور آيات ٦ - ٩)

فقد أخرج البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية
قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبى ﷺ : البينة أوحد
فى ظهرك ، فقال يا رسول الله : اذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق
يلتمس البينة . وفى رواية أنه قال : والذى بعثك بالحق انى لصادق ،
ولينزلن الله تعالى ما يبىء ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل
عليه : « والذين يرمون أزواجهم وأم يكن لهم شهداء الا أنفسهم
حتى بلغ . . . ان كان من الصادقين » .

وأخرج الشيخان واللفظ للبخارى عن سهل بن سعد أن عويمرا أتى
عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال : كيف تقول فى رجل وجد مع
امراته رجلا أيقنته فتقتلونه ، أم كيف يصنع سل لى رسول الله ﷺ عن ذلك

فأتى عاصم النبي ﷺ فقال يا رسول الله وفي رواية مسلم فسأل عاصم رسول الله ﷺ فكره رسول الله المسائل وعابها ، فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاء عويمر فقال : يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقئلته فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بنا سمى الله في كتابه فلاعنها . فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لاحدهما على الأخرى .

ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ثم قفاه عويمر قبل اجابته فأنزل الله الاجابة للحادثتين معا ، ويمكن القول : ان الرواية الثانية كانت افتاء من الرسول يمثل حادثة هلال الذى نزلت بسببه آيات الملاعنة .

الرابعة : أن تاتى روايتان صحيحتان ولا مرجح لاحدهما ولا يمكن الجمع بينهما لتباعد الزمان .

والحكم فى ذلك : الحمل على تكرار النزول . وبذلك نكون قد أعملنا الروايتين معا ولا مانع منه ، وان كان البعض لا يرى ذلك ويذهب الى تطبيق قواعد الترجيح ، وأن نأخذ بأرجح الروايات .

لأن القول بالتكرار لا يظهر عندهم الحكمة الواضحة لهذا التكرار .

ومثال ذلك قوله تعالى : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الخ السورة . ومثال وذلك أيضاً ما أخرجه البيهقى والبراز عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزل جبريل : والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الى آخر السورة . وهذه الرواية تدل على أن الآيات نزلت يوم (أحد) فى المدينة المنورة .

وأخرج الترمذى والحاكم عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم (أحد) أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنرمين عليهم « أى لنزيدن عنهم فى التمثيل » بقتلاهم « فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله « وان عاقبتهم » الآية .

وعلى هذه الرواية تكون الآية نزلت يوم الفتح .

وقد بينا أن الرواية الأولى تبين أنها نزلت فى أحد ، واحد كانت فى السنة الثالثة .

قال ابن الحصار : ويجمع بينهما أنها نزلت أولا بمكة قبل الهجرة . مع السورة لأنها مكية . ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده (١) .

وقيل : أن السورة مكية الا خاتمتها فانها نزلت بالمدينة . وعليه تكون الآيات نزلت مرتين فقط .

قال الزركشى فى البرهان : وقد ينزل الشئ تعظيماً لشانه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه .

هذا الذى ذكرناه كله اذا كانت الروايات صريحه فى سبب النزول ، أما اذا كانت محتملة واختلفت فان هذا محمول على التفسير وهو مقبول أما ان وجدت رواية صريحة والأخرى محتملة فاننا نحمل الصريح على سبب النزول ، والمحتمل على التفسير ، ولا نعتبر المحتمل سبباً للنزول .

والخلاصة : أن سبب النزول اذا تعدد فاما أن يكون الجميع غير صريح واما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحاً .

(١) الاتقان ج ١ ص ٣٣

- ١ - فان كان الجميع غير صريح فانه يحمل كله على التفسير .
- ٢ - وان كان بعضه غير صريح وبعضه صريحا فالمعتمد الصريح .
- ٣ - وان كان الجميع صريحا فتحت الصور الاربعة الآتية :
 - ١ - ان كان أحدهما صحيحا والآخر غير صحيح فالمعتمد الصحيح .
 - ب - ان كانا صحيحين وأحدهما راجح فالمعتمد الراجح .
 - ج - ان كانا صحيحين ولا راجح جمعنا بينهما على تعدد السبب ان أمكن ذلك لقرب زمانهما .
 - د - وان كانا صحيحين ولا راجح ولا يمكن الجمع لبعد الزمان حمل ذلك على تكرار النزول .

سابعاً : توحد السبب وتعدد النازل :

هذه الصورة عكس ما سبق . فان الأمر هنا سبب واحد والنازل عليه من الآيات أكثر من آية في أكثر من سورة .

ولا مانع منه لأنه لا ينافي الحكمة في اقناع الناس . وهداية الخلق بل هو أبلغ وأكثر في هذا الباب .

ومثال ذلك : ما أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا في ظل شجرة فقال : انه سيأتيكم انسان ينظر اليكم بعيني شيطان فاذا جاء فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ ، فأنطلق الرجل فاتى بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم . فأنزل الله « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا أن اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا بك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا والاخرة وما لهم في الأرض من ولى ولا نصير » (التوبة آية ٧٤)

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث وقالا : فأنزل الله « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا أنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا أن حزب الشيطان هم الخاسرون » (المجادلة آيات ١٨ ، ١٩)

وقد ينزل على السبب الواحد أكثر من آيتين ومثال ذلك :

ما أخرجه الحاكم بسنده عن أم سلمة أنها قالت : يارسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيح عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (آل عمران آية ١٩٥)

وأخرج الحاكم عنها أنها قالت : قلت : يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت :

« ان المسلمين والمسلمات » (الأحزاب آية ٣٥)

وانزل « أنى لا أضيح عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » .

وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت : تغز الرجال ولا تغز النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » (النساء آية ٣٢)

وانزل « ان المسلمين والمسلمات » وأنت ترى أن السبب واحد وهو : لماذا لم تكن المرأة كالرجل في الهجرة والذكر في القرآن والميراث ؟ وكانت الاجابة عليه كل تلك الآيات .

ثامنا : موقف العلماء من عموم اللفظ وخصوص السبب

يجدر بنا قبل الحديث عن هذا الموضوع أن نذكر كلمة موجزة عن صور اللفظ المنزل وسببه حتى نتمكن من الحديث عن موضوعنا هذا واللفظ المنزل وسببه لهما أربع صور وهى :

الصورة الأولى : أن يكون اللفظ عاما والسبب عاما كذلك .

ومثال ذلك : قوله تعالى « ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ۝ الخ الآية » .
(البقرة آية ٢٢٢)

فقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس قال : ان اليهود كانوا اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله « ويسألونك عن المحيض » الآية . فقال رسول الله ﷺ « جامعوهن فى البيوت واصنعوا كل شئ الا النكاح » .

ومثله قوله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير » .
(البقرة آية ٢٢٠)

والحكم فى هذه الصورة : اتفاق العلماء على أن المراد من الألفاظ العامة هم الأفراد الذين نزل فيهم اللفظ العام جميعا .

فالمراد بالمحيض كل امرأة حائض - والمراد باليتامى كل طفل يتيم .

الصورة الثانية : أن يكون اللفظ خاصا والسبب كذلك .

ومثال ذلك : قوله تعالى « وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

فقد أخرج ابن أبى حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله هم بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وأم عيسى وأمة بنى المؤمل وفيه نزلت : وسيجنبها الاتقى الخ سورة الليل . و « ال » فى الاتقى للعهد .

وحكم هذه الصورة : أن اللفظ الوارد قاصر على من نزل فيه لا يتعداه
الى غيره .

ويمكن القول في هاتين الصورتين : اذا اتفق النازل مع سببه في العموم
والخصوص حمل العام على عمومه والخاص على خصوصه .

الصورة الثالثة : أن يكون اللفظ خاصا والسبب عاما .

وهذه صورة عقلية افتراضية لا يمكن وقوعها في القرآن العظيم لأن
الجواب يكون قاصرا . وتتنزه آيات الله أن تنزل قاصرة أو مقصرة في الجواب

الصورة الرابعة : أن يكون اللفظ عاما والسبب خاصا .

وهى ما يعبر عنها العلماء بقولهم « عموم اللفظ وخصوص السبب »
وهو موضوعنا . فهل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

راى جمهور العلماء :

يرى الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فالحكم
الذى يؤخذ من اللفظ العام الذى نزل بسبب خاص يتجاوز صورة السبب الى
كل نظير له فأيات الظهار التى فى أوس بن الصامت أو سلمة بن صخر - على
خلاف فى الروايات - يشمل الحكم فيها كل من قال لامرأته : أنت على كظهر
أمنى - ويدخل السبب الخاص دخولا أوليا .

وآيات اللعان التى نزلت فى هلال بن أمية وزوجه تشمل كل من قذف
أمرأته ولم يكن له بينة على ذلك . الى غير ذلك وهذا هو الراى الراجح .

راى غير الجمهور :

يرى البعض أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ . فاللفظ العام
دليل على صورة السبب الخاص . ولا بد من دليل آخره لغيره من نظائره
وهو القياس .

وذلك ليبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة .

وليتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

وعند التدقيق في الأمر يبدو أنه خلاف شكلى وان كان بعض العلماء يحاول أن يجعل له ثمرة . فقد وجدناه خلافا لا يؤثر على تطبيق الآية تطبيقاً عاماً .

لأن كل فريق من المختلفين حول المسألة يقول بوجوب تطبيق الحكم على الحالات المناظرة في جميع الأوقات وفي كل البيئات لكن الجمهور يقول ان تطبيق الآية على الأفراد يكون عن طريق النص المنزل - والفريق المخالف يجعل التطبيق عن طريق القياس على من نزل فيه النص .

والمسألة في النهاية التطبيق على الجميع بالنص أو بالقياس المهم أنها طبقت على كل حالة مناظرة .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

والناس وان تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب . هل يختص بسببه أم لا ؟ . فلم يقل أحد من علماء المسلمين ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وانما غاية ما يقال : انها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ .

والآية التي سبب معين ان كانت أمراً أو نهياً في متناوله لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وان كانت خيراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن بمنزلته . أ هـ (١) .

والله أعلم ،

(١) مقدمة التفسير ص ٣٣٩